الباب السادس

الجغرافي بين التدريس وتقديم يد المساعدة للآخرين

تعليق المترجمين

في هذا الباب يناقش بيتر كولد موضوعات جوهرية في صلب الجغرافيا الحديثة: التعلم عن البيئة واستيعابها من خلال التفاعل معها. فالتعلم وسيلة للمساعدة، مساعدة الانسان لنفسه ليتخذ قرارات ويمارس سلوكيات تنسجم مع البيئة وقوانينها ويحافظ عليها وعليه ايضاً. ويقصد بالبيئة هنا البيئة الكلية بشقيها الطبيعي والبشري (لاجتماعي)، إذا استوعب الانسان الصلة بين عناصر النظامين البيئيين الطبيعي والاجتماعي وتمكن من توجيه بعضها لصالح المجموع حينها يكون قد قدم مساعدة كبيرة بما تعلمه.

والتعلم الذاتي يتأثر بدرجة كبيرة بطريقة التدريس (النظام التعليمي) السائدة في بلده. بعبارة اخرى، بأي أتجاه وجهت أنظار وأفكار الطلبة، لأنها ستحدد مجالات وكيفية الاستفادة منهم لاحقا، فأذا تعلم الطلبة أن الجغرافيا معلومات مسطرة في الكتب وخرائط في الأطالس فالجغرافيا يبق حبيس قاعات الدرس ليحفظ التلاميذ معلومات جامدة لا معنى ولا فائدة ترجى منها. أما إذا درسهم الجغرافيا عملياً بدء بالرحلة من المنزل إلى المدرسة وإستكشاف المحلة والمنطقة جغرافيا، وإذا كان هو قد تدرب ميدانيا على ذلك، أو عمل جاهدا ليدرب نفسه على ذلك، عندها فقط يفهم تلامذته ما هي الجغرافيا الحقيقية وكيف يفيدون بلدهم بما تعلمون. أن يقدموا المساعدة بما درسوه في قاعات الدرس وفي المحلة والمدنية والحقل والمصنع. ساعتها لا حاجة لخبراء من الخارج وستمتحن النظريات المختلفة على أرض الواقع وصولاً إلى بناء النظريات ونماذج تساعد في فهم النظام البيني المحلي والسيطرة عليه لتوجيهه لما فيه خير البلد ورخاءه.

ولعل سبب تخلف العديد من دول العالم الثالث راجع الى طبيعة النظام التعليمي، بدء برياض الاطفال وإنتهاء بالتعليم الجامعي. وهذا هو الحجر الأساس في اية عملية تنمية.

إنها الفواصل التي تحرك المجتمع وتحدد مساره وقدرته على الانتقال من مرحلة الى أخرى. فالطالب اليوم قائد في الغد، قيادته، وشعوره بالمسؤولية وطريقة معالجته المشاكل للجزء الذي يقوده يتحدد بما تعلمه في المدرسة والبيت والمعلومات التي تصل اليه. وحتى هذه، يعالجها بالطريقة التي تعودها في المدرسة. فما يتعلمه الشخص اليوم يطبقه غداً، أو يقدم المساعدة من خلاله الى نفسه والى الآخرين أيضاً.

في الفصل التاسع عشر يستعرض بيتر كولد صلة التعاون بين الجغرافيا والطب لدراسة إنتشار الامراض والأوبئة مكانياً وتحديد البؤر وعملية الانتقال بهدف الحد من معانات البشر من الكثير من الامراض التي تقتل اكثر مما تفعل الحروب والمجاعات. والمرض مظاهرة تتباين مكانياً وزمنياً ويرتبط تباينها هذا بعوامل محلية بدرجة كبيرة، لذا للجغرافيا الباع الطويل في دراستها خاصة لما لها من تأثير مباشر وغير مباشر على الانسان وبقاءه. يلخص المؤلف ببعض الحالات التي أسهم بها جغرافيون في تحجيم انتشار أمراض فتاكة، مثل السرطان والجدري وغيرها.

لاستيعاب الحيز الجغرافي الذي يعيش فيه الشخص اثر في أتخاذه قرارات يترجمها سلوكاً. لا يصح هذا على الفرد فقط بل على المؤسسات والدول ايضاً. ويتحدد هذا الاستيعاب بما يصل من معلومات. لذا يكوم الانسان اسير الموقع الذي هو فيه. فهو يعرف الكثير عنه، وتتناقص معرفته عن المناطق والاشخاص الآخرين بالابتعاد عن هذا الموقع. فللموقع، (المكاني وغير المكاني)، والمسافة (المكانية والاشتقاقية) اثر كبير في استيعاب الحيز الجغرافي واتخاذ القرارات. هذا هو محور الفصل العشرون.

تعليم الاطفال الجغرافيا الحديثة بالطريقة العملية المناسبة لأعمارهم توسع مداركهم العقلية وتعمق تفاعلهم مع البيئة وتحقق نتائج كبيرة للبلد عند إكمالهم دراستهم الجامعية. التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، والتعلم الصحيح يجعل البناء صحيحاً والبنية السليمة. هذا ما أراد بيتر كولد قوله في الفصل الحادي والعشرون. كذلك، يؤكد المؤلف أن الاطفال جغرافيون جيدون بالفطرة إلا أن بعض المعلمين لا يدركون ذلك ولا يستفيدوا منه.

ليس اللعب دائماً بهدف اللعب، بل يكون هدفه أحياناً التعلم من خلال التفاعل مع الآخرين المشتركين في اللعبة. وليست جميع الالعاب مخصصة للأطفال، فبعضها للكبار فقط. وقد يستخدم بعضاً لأغراض تدريبية في المؤسسات العليا: البنك الدولي، برامج

التدريب الادراي، طلبة الجامعات وغيرها. يقدر المؤلف لعبة الثورة الخضراء في الفصل الثاني والعشرون مؤكداً أن الهدف من تصميمها ولعبها هو زيادة الشعور بما يعانيه صغار المزارعين في دول العالم الثالث. ويوضح أن استيعاب التداخلات والتفاعلات بين النظامين البيئيين الطبيعي والبشري لا يمكن إدراكها من خارج النظام المحلي بل من خلال التفاعل معه، وتستمد منه الحلول أيضاً.

وفي الفصل الثالث والعشرون يلخص بيتر كولد مشكلة التنمية في العالم الثالث بالنقاط التالية:-

(١) تستورد الحلول الجاهزة من بلدان وصلت مرحلة ما بعد الصناعة لتطبق في اقطار لا زالت في مرحلة ما قبلها. لذا تفشل هذه الحلول في المعالجة الجذرية للمشاكل.

(٢) ينظر العديد من الغربيين الى الدولة في العالم الثالث كنظام مغلق Closed system تتم تنميته بغرضها من خارج، وهذا غير صحيح فالدولة النامية نظام مفتوح لديه الكثير من التفاعل الذاتي (بين عناصره) ومع جيرانه ومع العالم كنظام اقتصادي سياسي.

(٣) عند معالجة مشكلة ما ينظر اليها من زاوية ضيقة إختصاصية بحتة (اشتقاقياً)، ولا يساعد هذا في فهمها ولا في ايجاد العلاجات الناجعة لها. فالنظام الاقتصادي في العالم الثالث لا ينفصل عن النظام الاجتماعي السائد فيه.

(٤) المنجزات التنموية الكبرى لا ينتهي منها باعلان انجازها رسمياً، بل ادامتها ومتابعة عملها وتقييم كفائتها باستمرار لمعالجة الاختناقات والمستجدات . ومن اساسيات هذا أن يكون هناك نظام تغذية للمعلومات صعوداً ونزولاً.

(٥) يؤشر المؤلف توطن مرض الفساد الاداري وانتشار الرشوة في العديد من دول العالم الثالث وانعكاس هذا على التنمية القومية والاقليمية وتطور البلد وتقدمه.

(٦) تبعية النظام التعليمي في بعض دول العالم الثالث للنظام التعليمي للدولة المستعمرة سابقاً دون تطويره بما يتوافق مع حاجات وامكانات البلد.

كيف يستوعب تلامذتنا البيئة؟ كيف يتعاملون مع المعلومات الجغرافية؟ هل نعطي طلبتنا أفضل ما لدينا؟ هل للدراسة الميدانية موقع في نظامنا التعليمي؟ أين نحن من برامج التنمية المحلية الاقليمية والوطنية؟ غيض من فيض الاسئلة التي تتطلب الاجابة عنا بصراحة وتجرد لنعرف موقعنا المكاني وغير المكاني.